إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى ـ العدد الثانى ـ صيف ١٣٩٠ش / حزيران ٢٠١١م

التحليل والنقد لشخصية وأدب إلياس فرحات، شاعر العرب فى المهجر

دكتر حسن مجيدى*
إنسية سكاكى**

الملخص

انتقل مجموعات كبيرة من الناس للأراضى العربية، ولاسيما لبنان وسوريا، إلى الأمريكتين الشمالية والجنوبية فى أواخر القرن التاسع عشر وخلال العشرين، حيث استقرّوا فى الأمريكا، وكندا، والبرازيل، والأرجنتين، والمكسيك.

كان هذه الهجرة فى كثير من الأحيان نتيجة للتخلص من المشاكل الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية التى كانت قد سيطرت على المجتمع العربى. يتعرّض هذا المقال من بين هؤلاء المهاجرين، لإلياس فرحات، الشاعر اللبنانى الذى هاجر إلى البرازيل. يهيمن نفسية شعراء العرب القدماء بصورة واضحة على قوالب أشعار فرحات هيمنة لايمكن لفرحات التخلص منه نظراً لتشابه ظروف معيشته بهمتعكس قصص فرحات الشعرىة مختلف جوانب حياته وتجربته الشخصية على نطاق واسع.

الكلمات الدليلية: لبنان، إلياس فرحات، الهجرة، الأدب القديم، القصص الشعرية.

---

*.عضو هيئة التدريس بجامعة تربيت معلم فى سبزوار – أستاذ مساعد.
**. خرّيجة جامعة تربيت معلم فى سبزوار.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى.

Majidi.dr@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٤/٢٧هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٥/١٢هـ. ش

المقدمة

يعتبر إلياس فرحات شاعرا لبنانيّا مهجريّا ولد فى قرية كفر شيما، وتلقّى دروسه الأولى فى دير القرقفة القائم على رأس رابية تشرف على تلك القرية، وفى سنّ العاشرة ترك المدرسة وراح يتدرّب على المهن اليدوية، علّه يجد فيها طريق النجاح فى الحياة. وفى سنة ١٩١٠م هاجر إلى البرازيل، وانضمّ إلى أخويه وديع، وسعيد فى ولاية ميناس، ثمّ انتقل إلى سان باولو وزاول عدّة أعمال من تنضيد للحروف المطبعية، إلى تربية المواشى والدواجن، إلى جباية اشتراكات الصحف، إلى غير ذلک مما لم يحل دون انصرافه، فى أوقات الفراغ، إلى المطالعة والتمكن من قواعد الكتابة والنظم وقد اشترک مع توفيق ضعون فى إصدار مجلة الجديد ثمّ فى تحرير جريدة (المقرعة) التى أنشأها سليم لبكى.

وفى سنة ١٩٢٠م اقترن بجوليا بشارة جبران من بشرّاى. وفى سنة ١٩٤٨م فاز بجائزة الشعر من مجمع فؤاد الأول. وقد منحته الحكومة السورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. فى سنة ١٩٥٩م قدم سورية بدعوة من حكومتها، وأقام فيها وفى لبنان مدة كانت من أطيب أيامه. ثمّ عاد إلى البرازيل ليلقى فيها ربه سنة ١٩٧٧م. (الفاخورى، ١٣٨٠ش: ٦٥٠)

شخصيته

إلياس فرحات من العصاميين الذين ذلّلوا الصّعاب بعنادهم، وقد عاند الحياة فاقتنص الرزق من بين أنيابها، وتدرج فى العلم وحيداً لايعتمد إلا على ذكاء فطرى عجيب إلى أنّ ملک ناصية اللغة، وتدرج أيضا فى النظم معتمداً على فطرته الشعرية وأذنه الموسيقية إلى أن أصبح من أربابه. (المصدر نفسه: ٦٥١)

حياته فى البرازيل

وصل إلياس إلى البرازيل فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٠م وإنما

أصبح همّه الأول أن ينشر أفكاره وآراءه على الناس بشكل واسعٍ، وهذا ما جعله يميل إلى الاهتمام بالصحافة وإلى العيش فى سان باولو، عاصمة العربٍ فى البرازيل، حيث الأدباء، والصحف، والمجلّات، والندوات... وفى هذه المدينه اشترک مع ضعون فى إصدار مجلته (الجديد)، وكان باكورة ما نشر له فى الجديد موشح (يا جماعة) وهى إلى حبيبة غادرها فى الأفق الجميل، ثمّ موشح آخر بعنوان (عجل الذهب) يبين فيه قسوة أهل الفتاة عليها من أجل عريس موسر وصفه بالذئب الكاسر. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٩٣)

لقد شقى فرحات وتعذب كثيراً فى سان باولو، ونام ليالى دون عشاء، ومع ذلک لم يكن يرغب فى البعد عنها لما فيها من الأدباء والروح الأدبية.

تزوج فرحات، ولكن حياة كفاحه ومشقته لم تتوقف بل زادت وتضاعف العبء، فأخذ يربى الخنازير والحملان ... كل هذا، دون أن ينصرف عن قول الشعر. (فرحات، قال الراوى، لاتا: ٢١– ٢٥)

لم تستقر حياة فرحات فى مكان واحد، فهو يملک روحاً لا تعرف الاستقرار أو الهدوء فتراه ينتقل بعد زواجه أيضاً، من مدينة إلى أخرى ومن ولاية إلى ولاية، ومن عمل إلى عمل.

واستمرت حياة فرحات على هذا النحو، معاناة ومشاق من أجل العيش وبشكل خاص قضية فلسطين، حتى يومنا الحاضر.

فى سنة ١٩٥٣م طبع له (موسى كريم) صاحب مجلة الشرق فى سان باولو ديوان (أحلام الراعى)، ووزّعه على مشتركين مجانا... وهو عبارة عن ست قصائد فيها روح القصة، أو ستة أحلام تدور حوادثها بينه وبين نعاجه وكلبه، فيها الحكم والفلسفة والمثاليات ووجهة نظر فى الإنسان وأخلاقه وصفاته. (العودات، لاتا: ٧٢٠)

آثاره الأدبية

١. ديوان فرحات. ٢. الرباعيات أو رباعيات فرحات. ٣. أحلام الراعى. ۴. عودة

الغائب. ۵. فواكه رجعية. ۶. قال الراوى. (الفاخورى، ١٣٨٠ش: ۶۵١)

اتجاهات إلياس فرحات فى الشعر القديم

مراحله الشعرية

نستطيع أن نتسلسل معه تاريخياً فى محاولة لتقسيم شعره الوطنى، والسياسى إلى ثلاث مراحل:

١. المرحلة الأولى تنتهى بنكبة فلسطين سنة ١٩۴٨م وذكر فلسطين فيها قليل إلا فى الفترة الأخيرة، وفيها فخر شديد بالعرب وتهديد للغرب.

٢. المرحلة الثانية تنتهى سنة ١٩۵۶م وتمتاز بالمرارة والألم وفيها التعرض للزعماء العرب وتقريعهم والتركيز على قضية فلسطين.

٣. المرحلة الثالثة حتى سنة ١٩۶٣م تاريخ آخر قصيدة وصلت إلينا. ويبدو فيها الشىء الكثير من التفاؤل والأمل.

سنلاحظ أن الشعر السياسى، والوطنى الذى نظمه فرحات بعد النكبة، يختلف إلى حد كبير عما نظم قبلها، إذ أصبح يميل إلى الشدة، والعنف، والخطابة، واللوم.

أما المرحلة الثالثة فهى تمتد ما بين سنة ١٩۵۶م إلى سنة ١٩۶٢م، وهذا الأخير تاريخ آخر قصيدة نظمها فرحات ووصلت إلينا... وكل القصائد التى نشرت فيما بين هذين التاريخين نشرت فى ديوان واحد صدر أخيراً سنة ١٩۶٧م فى مصر تحت عنوان (مطلع الشتاء).

والحقيقة أن هذا الديوان يمتاز بالتفاؤل والأمل، بخلاف شعره الذى نظمه على أثر النكبة. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ١٣٣- ١۵۴)

تأثره من الأدب القديم

إنّ حياة فرحات وثقافته لتذكرنى بالشعراء العرب القدماء الذين كانوا ينشأون فى المدن، ثمّ يخرجون إلى البادية لتلقى اللغة وأساليب البلاغة والبيان، مشافهة من السنة

الأعراب. وذلک حتی تستقیم ألسنتهم وتخلص من اللحن، وتقوی أساليبهم، تجزل ألفاظهم شعر الشعراء الذين قضوا فترة من حياتهم فی البادية. وقد ساعده فی حفظ الشعر الذی کان يقرؤه تلک الذاکرة القوية التی وهبها الله له... وهکذا استطاع أن يتجنب الأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية، ويفهم القواعد کلها بالسليقة، معتمداً علی أذنه التی تلقت آلاف الأبيات. (بدوان قطامی، ١١١٩م: ١١٢)

تأثره من المتنبی

أغرم فرحات بالمتنبی وأقبل عليه بشغف، وسلمه زمام نفسه، وجعله رائده وأستاذه وقدوته. وهذا يبدو فی کثير من الألفاظ القديمة التی نجدها عنده، وفی ذکر أسماء الأسلحة وأدوات القتال التی نجدها فی شعر المتنبی، وخاصة سيفياته، کما يبدو فی الحکم والرثاء والمبالغات والتضمينات، وحتی فی الأوزان والقوافی... وفرحات لايحاول إنکار ذلک فهو يقر بفضل المتنبی، ليس عليه فقط، بل علی کل شاعر:

له السلطة العليا علی کل شاعر　　فلايدع التجديد بالشعر ناظم

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ١٤٢)

کما يعتبره أشعر الشعراء:

يا أبا الطيب يا أشعر من تحت السماء　　يا أمير الأمس واليوم وفخر الشعراء

(فرحات، مطلع الشتاء، ١٩٦٧م: ٩٦)

لايطلب المرء فهماً فی الجميع ولا　　يبغی من البدو ما يبغی من الحضر

(فرحات، الرباعيات،١٩٥٤م: ٧٤)

من حکمة المتنبی:

وإذا خفيت علی الغبی فعاذر　　أن لاترانی مقلة عمياء

(المتنبی، ١٨٩٨م: ٩٣)

وقوله أيضاً:

لسنا نجادل عمياً يطلبون علی　　ضوء النهار دليلا والنهار جلی

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ٥٨)

من حكمة المتنبى:

وليــس يصح فى الأفهام شــىء إذا احتــاج النهــار إلــى دليــل

(المتنبى، ١٨٩٨م: ٢٦١)

ومن قصائده، (المتنبى)، التى نظمها بمناسبة مرور ألف عام على وفاته، يقول منها:

مجــرة مجــد رصعتهــا المراقــم لكوكــب ســعد أطلعتــه العظائــم

تمشــوا علينا والرضى يستر الردى «كما تتمشــى فى الصعيد الأراقم»

إذا فتــروا أذكــى الحماســة هاتف «على قدر أهل العزم تأتى العزائم»

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ١٤٢)

وقصيدته (سان باولو) التى يقول منها:

أتهجرهــا وتبخــل بالســلام وكنت تزور حتــى فى المنام

وأنــزل كل يــوم دار قــوم وداری مــرة فــى كل عــام

(*المصدر نفسه*: ١٧٧)

ففى القصيدتين الأولى والثانية، يظهر أثر المتنبى واضحاً، وخاصة جو قصيدته التى نظها سنة ٣٤٣ق يمدح فيها سيف الدولة، ويذكر بناء ثغر الحدث:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم و تأتى على قدر الكرام الكرائم

(المتنبى، ١٨٩٨م: ٢٩٠)

«أما سمة البدواة التى تظهر فى شعره، فهذه أيضاً تعود إلى المتنبى وأثر البادية فيه فقد كان لحياته الأولى فى البادية وبين الأعراب، ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة فى موضعها من كلام العرب، أثر راسخ فى موهبته وطبعه، حتى إن مياسم البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده.» (زكى المحاسنى، لاتا: ٤١)

تشابهه وتأثره من المعرّى

هناک شاعر آخر تأثر به فرحات، إلى حد ما، ولكن تأثره بأفكار هذا الشاعر ونهجه أكثر من تأثره بألفاظه وأساليبه. وهذا الشاعر هو أبوالعلاء المعرى... والحقيقة أن هناک

تشابهاً كبيراً بين شخصية المعرىّ وصفاته، وبين شخصية فرحات وصفاته، بالإضافة إلى تشابه ظروفهما... ومن الصفات التى نجدها عند المعرىّ ونجد مثلها عند فرحات: «الذاكرة الجبارة، قوة التحليل العقلى، الجرأة، الأنفة.» (فروخ، ١٩٦٠م: ٢٧-٢٨)

ولابد أنه تأثر بتلك اللمسات الخفيفة التى مسّ بها المعرى أخلاق الناس فى زمانه من مثل قوله:

فظُنَّ بسائر الإخوان شرًّا ... ولاتأمن على سر فوادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبرى ... لما طلعت مخافة أن تكادا
تجنبت الأنام فلا أواخى ... وذدت عن العدو فما أعادى
فأى الناس أجعله صديقاً ... وأى الأرض أسلكه ارتيادا؟
ويظهر لى مودته مقالا ... ويبغضنى ضميراً واعتقادا

(المعرى، ١٩٦١م: ١٩٧-١٩٨)

كما تأثر إلى حد ما بتشاؤمه نظرته السوداء إلى الحياة، فبرز هذا كله، بتأثير ظروفه وحياته فى المهجر، وعلاقاته بالناس بشكل واسع فى الرباعيات، ذلك الديوان الذى يعد ثمرة لطموح الشباب أنضجتها مصاعب العيش وقسوة الحياة. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ١١٩)

هناك قصيدته التى نظمها سنة١٩٤٤م بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد المعرى، بعنوان (المعرى) تبين لنا اطلاع فرحات على لزوميات المعرى وإنتاجه الشعرى.

ألا أيها الأعمى البصير الذى رأى ... بفطنته قلب الورى المتقلبا
ولم ير فى الأديان إلا حبائلا ... يصيدبها الداعى إليها التكسبا
فيا من رأى فى الدين قيداً لعقله ... فأعمل فيه مبرد النقد مغضبا
أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ... ديانتكم مكر وأحلامكم هبا

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ١٨٨)

كما أن أثر المعرى ووجهة نظره فى البشر، تبدو بشكل واضح عند فرحات فى ديوان (أحلام الراعى) الذى صدر سنة ١٩٥٣م كما تبدو آواؤه فى الأديان، ورجالها، والفروق

الدينية والمذهبية، وتناول الأمور تناولا عقلياً... فى كل شعره ودواوينه الأخرى... لنستمع إلى هذه الأبيات للمعرى من لزومياته، حيث نرى أصداءها أو نراها بشكل موسع فى قصيدة سلام الغاب من ديوان (أحلام الراعى)...

يقول المرعى فى محاورة بين الضأن وابن آدم:

لو حاورتک الضأن قال حصيفها　　الذئــب يظلــم وابــن آدم أظلــم
أظفــارک اســتعلت إلــى أظفاره　　بأســا، وتلک وقــت وهذى تقلم

(المعرى، ١٩٦١م، ج٢: ٤٠٩)

ومثل هذا فعل فرحات فى (سلام الغاب) حيث أدار حوارا بينه وبين إحدى نعاجه بعد أن قتل الذئب بمساعدة كلبه... وعلى لسان هذه النعجة جاء بمقارنة بين الإنسان والذئب كمقارنة المعرى، وخرج منها بتفضيل الذئب على الإنسان، لأن الذئب لا يقتل إلا وهو جائع على حين أن الإنسان يقتل جائعاً ومتخماً... يقول على لسان النعجة:

قالــت لمــاذا قتلــت جائــع　　لــم يبغ منــا ســوى الطعام؟
ولــو رجعنــا إلــى الطبائــع　　فالوحــش خيــر مــن الأنام
تتهــم الذئــاب بالحمــلان　　وأنت أضراها وأقســى عملا
الذئــب لايســطو إذا لم يجع　　وأنت تســطو جائعــاً ومتخما

(فرحات، أحلام الراعى، ١٩٦٢م: ٥٣-٥٧)

والحقيقة أنه كان للثقافة اللغوية والأدبية القديمة التى عبرّها فرحات، أثر كبير فى شعره من حيث الأوزان والقوافى والصور والعبارات والأساليب والألفاظ، فما رأيناه يخرج- فى أغلب شعره- على الأوزان والقوافى العربية القديمة، كما أن الكثير من صوره تبدو عليها سمات البداوة والبيئة العربية القديمة.

ولا ننسى فى هذا المجال أن الذى ساعد على ذلک عند فرحات، تلک الذاكرة القوية التى كانت تختزن كل ما تقرأ أو تسمع. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ١٢٤)

قصصه الشعرية

القصة الشعرية

القصة شكل من أشكال التعبير الأدبى، تتجلى فيها- إلى حدّ كبير- عواطف صاحبها، ونوازعه، وآراؤه، واتجاهاته... وهى تقوم على ثلاثة عناصر- فى الغالب- هى العرض والعقدة والحل، يسلم كل جزء فيها الحوادث إلى الجزاء الذى يليه بشكل طبيعى متسلسل بعيد عن الحشو والاستطراد أو التدخل. (*المصدر نفسه*: ٢٤٦)

الحوادث تسير بشكل طبيعى منطقى، يعتمد اللاحق منها على السابق اعتماداً متناسباً بعيداً عن الافتعال، دون إسهاب أو إيجاز أو حذف. «مهمة القاص تنصر فى نقل القارئ إلى حياة القصة، بحيث يتيح له الاندماج التام فى حوادثها، ويحمله على الاعتراف بصدق التفاعل الذى يحدث بين الشخصيات والحوادث.» (نجم، ١٩٦٣م: ١٠)

أما القصة الشعرية، فهى فن أو نوع من الأنواع الشعرية التى يعدّها بعض النقاد فناً جديداً فى الشعر العربى اقتبسناه عن الغرب، مع أن الدكتور مندوراً ينكر وجود هذا النوع من الشعر عند الغربيين والحقيقة أن القصة الشعرية بمفمومها البسيط، نجدها فى تراثنا الشعرى منذ العصر الجاهلى حتى عصرنا الحاضر... نجده عند امرئ القيس والمنخل اليشكرى والنابغة الذبيانى والحطيئة وعمر بن أبى ربيعة وأبى نواس... وغيرهم أما القصة الشعرية بمفهومها الحديث القائم على ما تقدّم من مفهوم القصة، فهذا فن جديد لانجده إلا عند بعض شعرائنا المحدثين. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٢٤٧)

وإذا كان الشعر تصويراً لما ينعكس على نفس الشاعر من جوانب الحياة، والقصة تصويراً لقطاعات من الحياة نفسها، فإن القصة الشعرية تجمع بين هاتين الصورتين، وتجعلنا نحيا التجربة النفسية الواحدة فى نطاق أوسع وأفق أرحب (مريدن، ١٩٨٤م: ١٠)... وتوسل القصة بالشعر لابدّ أن يجعلها أكثر إيجازاً وأقوى إيماء، وأشد وقعاً، وأعمق أثراً فى النفس.

ولنر، بعد ما تقدم، ما هى أنواع القصة الشعرية عند فرحات، ومدى توفر العناصر الفنية فيها...

فى ديوانه الأول المطبوع سنة ١٩٣٢م باسم ديوان فرحات نجد أربع قصص بأسماء: الشهيدان- احتجاج السعادين – الراهبة – كل حر فى دولة الظلم جان... وتوخياً للدقة، لا بد لنا من القول إنّها ثلاث أقاصيص وقصة واحدة، الأولى منها أقصوصة وجدانية مأساوية، والثانية رمزية اجتماعية وطنية، والثالثة وجدانية اجتماعية... أما الرابعة فهى القصة، وموضوعها وجدانى وطنى اجتماعى...

قصة (الشهيدان)

تدور الأقصوصة الأولى (الشهيدان) حول عروسين ناما فى ليلة باردة، بعد أن وضعا الفحم المشتعل فى غرفة نومهما لكسر حدة البرد، فاصبحا جثتين هامدتين... وقد بدأ الشاعر القصيدة بموعظة حول الموت والحب ثمّ انتقل إلى نقل حوادث أقصوصة، كما جاءت فى إحدى الصحف، مبيناً أثر وقع الخبر على عيون المستمعين، ثمّ ختمها ببعض العظات... وهذه المواعظ فى أول الأقصوصة وفى خاتمتها تعد حشواً أفقدت الأقصوصة الكثير من فنيتها، وألصقت بها أجزاء لا تمت إليها بصلة...

قصة (احتجاج السعادين)

أما الثانية (احتجاج السعادين) فمضمونها يدور حول نظرية دارون التطورية، ووقع هذه النظرية لدى القرود، الذين ثاروا عند سماعهم لها فاجتمعوا وأرسلوا نائباً عنهم لمقابلة المولى تعالى وتقديم شكوى ضد البشر الذين يحاولون الانتماء لهم، مبدين رفضهم لتلك المحاولة... وقد استطاع ذلک النائب أن يقابل الله تعالى، فساق بين يديه خطبة طويلة عن أعمال البشر السيئة وعلاقاتهم الخسيسة وصفاتهم المنحطة... وهذه الخطبة المسهبة لم تخدم هدف القصة العام، بل أضعفت روحها الفنية، ولكن الشاعر جاء بها تعبيراً عن نفسه ومرارته من البشر وأخلاقهم، وتألمه من أبناء قومه الذين أنهكتهم الفروق الطائفية والمذهبية، وساقتهم المطامع والأهواء على حساب كرامتهم وعزتهم وعلى حساب الوطن وكرامته، كقوله (على لسان ذلک النائب واصفاً القرود

إياها بالبشر).

لاتعرف الدين فى غير الإخاء ولا تجنى على الخلق باسم الله والدين
لا للبطـارق تعنـو فى سياسـتها ولاتجـوع لإشـباع المطاريـن
ولاتمـزق أوطانـاً مقدسـة بغضـاً لأحمـد أو حبًّـا لمـارون
ولا تبيـع مـن الأغـراب موطنها كلا ولـو غمروهـا بالنياشـين

(فرحات، ديوان، ١٩٣٢م: ٩٥)

وينهى تلك الأقصوصة بأن الله تعالى قد طلب من نائب القرود أن يكف عن كشف معايب البشر، مبيناً له أنه قد قطع علاقته بهم جميعاً... وطبعاً لايخفى أن هذا التخلى لكثرة ما عند البشر من مساوىء وخسة.

قصة الراهبة

وأما الثالثة (الراهبة) فتدور حول فكرة الرهبنة التى تتخذها بعض الفتيات فراراً من مشكلة تكون- فى الغالب- مشكلة عاطفية... وموضوع الأقصوصة يدور حول فتاه جميلة من عائلة ثرية منعمة، هجرها حبيبها، فلجأت إلى الدير تداوى جراح الحب ولبست مسوح الراهبات ناذرة نفسها لله... وفى أحد الأيام استيقظت مع الصباح وأخذت تجمع من حديقة الدير ضمة من الزهر... وفى خلال ذلك لفتت نظرها زهرة جميلة فى أعلى الجدار، تعز على من يريد جناها، فأخذت تسائلها عن سبب بعدها وعيشها فى عزلة، وتستحسن لها العيش فى جوار الأزاهير... وعندما عادت تلك الراهبه إلى مأواها فى الليل، ونضّت ثيابها، بدت لها كنوز الجمال المختفى تحت ثياب الرهبنة، فإذا بها تستعيد تلك العبارة التى خاطبت بها الزهرة المنفردة داعية إياها إلى الدخول فى المجتمع. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٢٤٩)

وأنـت تعيشـين فـى عزلـة فلا فى السـماء ولا فـى الثرى
لمـن خلـق الله هـذا الجمـال ومـن يتنشّـق هـذا الشـذى

(فرحات، ديوان،١٩٣٢ م: ١٣٧؛ وديوان الربيع: ١٧٩)

وحول شخصية (الراهبة) التى تقف حياتها على خدمة البشر، لدينا ثلاث قصائد

يعبر كل منها عن شعور الشاعر بالتعاطف مع هذه المخلوقة، شعوراً لا يستهدف إصلاح المجتمع – على غرار ما رأينا فى القصائد السالفة – ولكنه مجرد شعور عاطفى رومانسى، يستطلع الشاعر من خلاله ما تنطوِى عليه نفسيتها من أحاسيس، فللشاعر(إلياس فرحات) قصيدة (الراهبة) التى أطلت من الدير فى ضحى يوم مشرق، وقد بدت على وجهها علائم اليأس، إنها فتاة يخلب حسنها الألباب، وإن علا وجهها شحوب ظاهر، مع أنها ماتزال فى ربيع الحياة وشرخ الشباب. واخترق الشاعر حجب الغيب ليعرف علة وجودها فى هذا الدير، فتراءى له أن وراءها حبيباً غدر بها وهجرها، فلم تجد دواء لصدمتها هذه سوى أن تهب نفسها لربها، وتقف حياتها على التبتل والرهبنة.

ولما طلعت شمس النهار، خرجت من الدير لتجمع ضمة من الزهر تهديها لفادى الورى، وبينما كانت تسير على مهلها تلتقط زهرة من هنا، وورده من هناك، رأت زهرة نبتت فى أعلى الجدار، فأعجبها شكلها ولونها، وزاد فى قيمتها أنها تعز على من يريد اقتطافها، فحرك منظرها وجدانها فقالت لها بحنان:

لمــن خلــق الله هــذا الجمال ومــن يتنشــق هــذا الشــذا؟

ثمّ غامت الدنيا فى عينيها فقفلت عائدة إلى غرفتها، وقد حرك قلبها لهيب الذكريات، وحينما نضت ثوبها عنها لتنام، تبين من حسنها ماكان خافياً، وسمعت هاتفاً صامتاً هو رجع الصدى يقول لها:

وأنــت تعيشــين فــى عزلــة فلا فى الســماء ولا فــى الثرى

لمــن خلــق الله هــذا الجمــال ومــن يتنشــق هــذا الشــذا؟

الصفة الأولى التى فى هذه القصة، هى اعتماد الشاعر على التحليل الدقيق لنفسية هذه الراهبة، فقد أفرغ مشاعرها على الزهرة فى رومانسية عميقة، فشاركتها الطبيعة فى أحاسيسها، لما يوجد من التشابه بينها وبين الزهرة من حيث الجمال، والرفعة، والامتناع على من يريد اقتطافها، وهذا كله أشاع فى القصة لمحات رومانسية أصيلة.

وميزة أخرى نذكرها لهذه القصة، هى أن الشاعر تمكن من الربط بين حال الراهبة فى الحقل، وحالها حينما عادت إلى خدرها، ونضت ثوبها للنوم، وساعد على هذا الربط

إنهاء القصة بالبيتين الأولين من مناجاتها للزهرة. وليس فى القصة حدث ضخم يستحق الالتفات، ولكن عناية الشاعر بدت واضحة بالتصوير لاسيما لتلك الراهبة وملامحها العامة، ونفسيتها التى تنطوى على روح ثائرة مكتومة، مما جعل القصة بجملتها شائقة ممتعة. أما الراهبة الثانية فللشاعر ندرة حداد وابراهيم العريض. (مريدن، ١٩٨٤م: ٣٠٤-٣٠٥)

والحقيقة أن هذه الأقصوصة عند فرحات تعد من أروع قصصه فنيّاً، إذ تخلو من روح الخطابة والمواعظ المباشرة وتدخّل الشاعر والإسهاب المخل... إلخ من تلك العيوب التى نجدها فى قصصه الاخرى... كما تمتاز بتصوير الصراع النفسى تصويراً بديعاً عن طريق علاقه رمزية، وعن طريق إيماءات سريعة عميقة التأثير... وبالاضافة إلى هذا يتجلّى فيها الأسلوب الشعرى الجميل وروعة الأخيلة والصور التى منحت القصة بعداً فنياً رائعاً وأثراً قويا آسراً. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٢٤٩)

قصة (كل حر فى دولة الظلم جان)

أما الرابعة فهى قصة (كل حر فى دولة الظلم جان) وهذه تقوم على موضوعين يسيران معاً، وهما: موضوع عاطفى وموضوع وطنى... والموضوع العاطفى يمثل الجانب الأكبر من القصة.

تدور حوادث هذه القصة بين شاب وفتاة يعيشان فى لبنان. تحابا منذ طفولتهما، وكبرا وكبر الحب معهما، ولكن الحائل بينهما كان اختلاف الدين، إذ هو مسيحى وهى مسلمة... وبعد أن يتحدث الشاعر بإفاضة عن آلام ذلك الصبى وتولّهه، ثمّ يتحدث عن الطبيعة وجمالها، غامزاً الأديان، كما يتحدث عن نفسه وآرائه... وفى هذا شىء من التدخل المخلّ والمضعف لروح القصة وتسلسل الأحداث.

بعد ذلك يخرج إلى الحديث عن عدوان المستعمر على سورية، وقتل والد الفتاة فى السجن لأنه لم يرض عن الظلم، واضطرار الفتاة وأمها إلى السفر إلى دمشق... ثمّ ينتقل إلى الحديث عن المآسى التى أنزلها المستعمر فى سورية، وعن الثورة وزيد وسلطان

الأطرش ووقائع الدروز مع فرنسا، معرجاً على الدين، داعياً الصبى إلى السير إلى دمشق، للقاء محبوبته... وبعد شهر يلتقى المحب بمحبوبتة فى إحدى ضواحى دمشق، ولكن ثلة من الجنود السودانيين تحيط بهما طامعة بالفتاة... وتدور معركة بين الصبى والجنود، يقتل فيها بعض الجنود، كما يقتل العاشقان... وهنا يعرض الشاعر بالفرنسيين وأكاذيبهم وادعاءاتهم.

يتحسر الشاعر، بعد ذلک، على حال هذين العاشقين مبدياً تعاطفه معهما، ويُنهى القصيدة التى وصل عدد أبياتها إلى ٢٢٢ بيتاً، عن حال قومه العرب مع الدين الذى سلطوه على كل شيء، مهاجاً الدين، داعياً إلى الحب مبيناً أثره فى النفوس والأعمال والسلوک.

والحقيقة أن بعض الوقائق الغرامية فى هذه القصة، إنّما هى نقل عما حدث مع الشاعر نفسه، وخاصة ذلک الجزء الذى ساقه على لسان الصبى متحدثاً عن حبه الأول وتعلقه بتلک المحبوبة، ملقياً التبعة على روايات جورجى زيدان التى كانا يقرآنها معاً، حيث يقول:

علمتنـــى الغـــرام حرفـــاً فحرفـــاً　　كتـــب زيـــدان آه مـــن زيـــدان
كنـــت أتلـــو روايـــة عـــن فتـــاة　　مـــن بنـــات الملوک من غســـان
...لست انسى قولى لها حين كان الـ　　حب والشـــوق يجريان لســـانى
إن تكونـــى هنـــداً وفـــاء وحبـــاً　　كنـــت حســـادک المحـــب العانى

(فرحات، ديوان، ١٩٣٢م: ٢١٨؛ وديوان الربيع: ٢٦٦)

وقد تعرضنا لذلک فى حديثنا على حياة فرحات. وهذا الامر قد فات عزيزه مريدن عند دراستها لهذه القصة فتحيرت بشأنه ومما قالته: «أتراه يريد أن ينوه بروايات زيدان أم يريد أن يضفى على هذه العاطفية لوناً خياليا خالصاً.» (مريدن، ١٩٨٤م: ٣٧٧)

لو حاولنا أن نخضع هذه القصيدة للمفهوم الفنى للقصة، لوجدنا أنها تخرج على ذلک المفهوم فى أغلب جوانبها... فمع أن عنوان القصة سياسى، إلا أن محورها الأول عاطفى، كما أن فيها شيئاً كثيراً من القسر والتدخل والإيضاح والوعظ والخطابة والحكم وفقدان

التسلسل المنطقى والاعتساف فى ربط الأحداث... أى بالاختصار، لقد اتخذ الشاعر من الموضوع العاطفى الصغير وسيلة لِبَثّ آرائه وإفراغ نوازعه وأهوائه، وإلقاء مواعظه وحكمه والتعريض بالمستعمر ورجال الدين والأديان والرسل، مهتماً بهدف القصة العام دون الاهتمام بتفصيلاتها وربط الأحداث وتسلسلها المنطقى... وهذا ما أضعف بناءها الفنى وأفقدها الخيط القصصى، بل أفقدها الهدف الرئيسى الذى تهدف إليه القصة عامة، وهو اندماج القارى فى أحداثها...

كما لايخفى الأسلوب التقريرى فيها، وخلوها من الأخيلة والصور الجميلة، وبناؤها على وزن البحر الخفيف ذى النغم الهادى القريب من النثر... وكل هذا كاد يحول القصيده عنده إلى نظم، بل هى نظم فى كثير من المواضع. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ٢٥١)

قصصه القصيرة

بالإضافة إلى القصائد المتقدمة، نجد أيضاً ستّ قصائد أخرى على شكل قصص قصيرة أو أقاصيص فى ديوانه أحلام الراعى... وهى قصائد رمزية على شكل أحلام عاش فيها الشاعر مع نعاجه، وشياهه، وكلبه الغضروف. وهذه القصائد فى مجموعها – ما عدا الأولى– تدور حول الهجاء الاجتماعى والتعريض بأنباء البشر وتفضيل الكلاب والحيوانات عليهم... أما الأولى فتدور حول الخمر والحب وأثرهما فى النفوس، كما تدور حول الشباب وضرورة انتهاز تلك الفترة والتمتع بها... وهناک قصيده أخرى فيها ـ بالإضافة إلى الهجاء الاجتماعى ـ فكرة أخرى وهى فكرة العدل الإلهى، ومحاولة الثورة والتمرد على ما قبلت به المخلوقات من تسلط القوى على الضعيف، والصراع بين فكرتين حول خالق هذا الكون، أهوالله أم هى الطبيعة؟... وهذه القصيدة هى القصيدة الخامسة فى الديون وهى بعنوان؟ (إشارة استفهام).

هذه القصيدة – عامة– تبدو فيها الروح القصصية بوضوح، ولكن ما يضعف هذه الروح، هى الإطالة المُمِلّة فى بعض المواضع، والخطابة والعظات فى مواضع أخرى، وسوق أشياء لا صلة لها بموضوع القصة فى مواضع ثالثة... كما نجد فيها – أيضاً–

الحوار الطرايف الذى يضفى عليها شيئاً من المتعة، والحركة الخفيفة التى تمنحها كثيراً من الحيوية. (بدوان قطامى، ۱۱۱۹م: ۲۵۱-۲۵۲)

النتيجة

كان إلياس فرحات شديد المعارضة، عالى الهمة، كثير الجلد على الدرس والتحصيل، فعكف على المطالعة والاقتباس وأخذ يتمرن على نظم الشعر متدرجا من العامى إلى الفصيح، دون أن يتعلم الصرف والنحو والعروض، ولكنه كان يستعين بأرباب العلم ويعرض عليهم شعره فيصححون له الأخطاء اللغوية. وكما كان العناد أبرز صفاته فعاند الشعر حتى امتلكه وعاند الحياة والرزق رغم أنه كان يهرب منه. مميزات الياس فرحات الأدبية والشخصية بالايجاز، هى:

التأمل فى الأدب الكلاسيكى، والمبادرة فى خلق قوة التعبير الأدبى، والنظر فى أعمال الشعراء، وعدم الانتباه إلى القواعد المشتركة والشعبية فى الأدب العربى، الهروب من بعض قواعد العروض، والانتباه إلى المعنى والابتكار فى الشعر العربى فى خلق مركبات جديدة، استقلال الفكر، استعمال العواطف البشرية فى الشعر، العناية بالحياة الاجتماعية والسياسية للعرب، الاحاطة بالعلوم القرآنية والأحاديث، العناية للعادات التقليدية فى الحياة العربية، الاهتمام بالوحدة الموضوعية فى القصيدة، فكرة حكيمة ونبيلة.

المصادر والمراجع

بدوان قطامى، سمير. ۱۱۱۹م. *إلياس فرحات شاعر العرب فى المهجر*. القاهرة: دار المعارف بمصر.

العودات، يعقوب. ۱۹۵۶م. *الناطقون بالضّاد فى الأمريكا الجنوبية*. المجلّد الأول. بيروت: دار ريحانى.

الفاخورى، حنا. ۱۳۸۰م. *تاريخ ادبيات عربى*. مشهد: نشر توس.

فرحات، إلياس.

- *أحلام الراعى*. ۱۹۶۲م. الطبعة الثانية. بيروت: دار الملايين.
- *ديوان فرحات*. ۱۹۳۲م. سان باولو.

- *الصيف*. ١٩٥٤م. البرازيل.
- *الرباعيات*. ١٩٥٤م. البرازيل.
- *قال الراوى*. ١٩٦٥م. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد.
- *مطلع الشتاء*. ١٩٦٧م. القاهرة: مكتبة القاهرة.

فرّوخ، عمر. ١٩٦٠م. *أبوالعلاء المعرى الشاعر الحكيم* بيروت: دار المشرق.

المتنبى، أبوالطيب. ١٨٩٨م. *ديوان*. مصر: طبعة هندية.

مريدن، عزيزة. ١٩٨٤م. *القصة الشعرية فى العصر الحديث*. دمشق: دار الفكر.

المعرى، أبوالعلاء. ١٩٦١م. *اللزوميات*. الجزء الثانى. بيروت: دار صادر.

نجم، محمد يوسف. ١٩٦٣م. *فن القصة*. بيروت: دار الثقافة.